حركة العزاء الحسيني

"قيم متجددة في وعي الأمة"

بقلم: أ.د عباس علي شلال / مدير مركز الفيض لاستطلاع الرأي
والدراسات المجتمعية

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

ليست حركة العزاء الحسيني مجرد مناسبة دينية موسمية تتكرر سنويًا، بل هي ظاهرة إنسانية وثقافية متجذرة في الوعي الجمعي، تُسهم في ترسيخ قيم مركزية تجسدت في واقعة كربلاء، وهذه القيم كالإباء، والتضحية، والشجاعة، والعدالة تتجلى في كل موكب، وكل دمعة، وكل نداء "يا حسين"، مُشكّلة خطابًا يتجاوز الحدود الطائفية والجغرافية، ليُعبّر عن انتصار المبدأ على القوة، وعن خلود الرسالة المستمد من تضحية عظيمة.

لم تكن عاشوراء مجرد مواجهة عسكرية، بل كانت صراعًا جوهريًا بين منظومتين أخلاقيتين متناقضتين: إحداهما تمثل العدل، الحق، والحرية، والأخرى تُكرس الاستبداد، الفساد، والمصلحة الضيقة، ورغم الخسارة المادية التي مُنيت بها جبهة الإمام الحسين (عليه السلام) في كربلاء، فإن النصر الحقيقي تجلى في بقاء قيمهم حية ومتجددة، تُزرع في ضمير الأجيال عامًا بعد عام، وهذا ما يجعل حركة العزاء الحسيني تتجاوز مجرد الحزن والرثاء، لتصبح منصة لتعليم القيم، بناء الوعي، وتجديد الالتزام بمبادئ الإنسان العليا.

جذور العزاء الحسيني ودلالاته المتطورة

نشأت مراسم العزاء الحسيني من صميم الفاجعة الكربلائية، وتحديدًا مع عودة قافلة السبايا بقيادة السيدة زينب بنت علي (عليها السلام) إلى الكوفة والشام، في كلماتها ودموعها، تجلت أولى ملامح الثورة الوجدانية التي تطورت لاحقاً إلى شعائر منظمة.

اقتصر العزاء في نشأته على البكاء للمفقودين ورثاء الضحايا، لكنه سرعان ما شهد تطورًا نوعيًا ليشمل أشكالاً متعددة من الإحياء والتعبير كالمنبر الحسيني، مواكب اللطم، التمثيل المسرحي (التشابيه)، الشعر والمراثي، وصولاً إلى الفن التشكيلي والمواكب الخدمية، ولم تكن هذه الأشكال مجرد تعبيرات عن الحزن، بل تحولت إلى أدوات فاعلة للتذكير، واستنهاض روح المقاومة ضد الظلم، ودعم قيم العدل والكرامة.

تُعد كربلاء حدثًا مفصليًا في الوعي الإسلامي لا مجرد واقعة تاريخية عابرة، ولهذا تحول العزاء إلى منصة ثقافية وشعبية تُنقل عبرها الرسالة جيلاً بعد جيل، وإنها تُرسخ فكرة أن تضحية الدم إذا امتزجت بالمبدأ، فإنها تُنتج رمزًا خالدًا لا يُنسى، وقد عبر الإمام الصادق (عليه السلام) عن هذا البعد بقوله "أحيوا أمرنا، فرحم الله من أحيا أمرنا"، حيث يتجاوز مفهوم الإحياء مجرد البكاء ليشمل الفهم، التذكير، والتجديد. إن الدلالة الجوهرية للعزاء تكمن في كونه حركة مضادة للنسيان، واستنفارًا دائمًا للضمير الجمعي للحيلولة دون تطبعه مع الظلم، وضمان عدم مرور الانحرافات الكبرى دون استحضار الأثمان الباهظة التي دُفعت لحماية القيم الأصيلة.

رسالة إنسانية تتجاوز الحدود

لم تكن كربلاء مجرد مواجهة غير متكافئة القوى، بل كانت إعلانًا أخلاقيًا مدويًا بأن القيم يمكن أن تتحدى القوة الغاشمة، وأن صوت الحق الصادق قد يتردد صداه في ضمير التاريخ أقوى من آلاف السيوف، والعزاء الحسيني يحمل في جوهره رسالة كونية تتجاوز الأبعاد الدينية أو الطائفية،

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

ليُصبح صرخة عالمية ضد الظلم وتذكيرًا مستمرًا بأن السكوت عن الانحراف يُمثل خيانة للحق.في كل بيت يُرفع فيه اسم الحسين، وفي كل مجلس تُروى فيه فاجعة كربلاء، تُستعاد تلك اللحظة المحورية التي وقف فيها الإمام الحسين (عليه السلام) وحيدًا، رافضًا مبايعة الطغيان ولو بكلمة واحدة، ومُقدمًا دمه قربانًا لقيم العدالة، الحرية، وكرامة الإنسان، وكان بإمكانه أن يساير السلطة الأموية ويتجنب مصيره المأساوي، لكنه اختار أن يكون "موت في عز خير من حياة في ذل".

تتجلى هذه الرسالة اليوم في التنوع الكبير للتعبيرات العزائية حول العالم، من مواكب التظاهر السلمي، إلى إحياء قضايا المظلومين كما هو الحال في فلسطين، وصولاً إلى الوقفات التضامنية مع المستضعفين في أنحاء العالم لاسيما الغرب والمهجر، وكل هذه المظاهر ترتبط بالإمام الحسين كرمز عالمي للمظلوم، وكقيمة كونية للعدل، ومن أبرز ملامح تحدي الظلم هذا، أن العزاء لم ينكفئ على ذاته، بل أصبح خطابًا يُلهم الحركات التحررية ويمنح رمزية أخلاقية للثورات التي تُرفع باسم الكرامة، من مقاومة كل أشكال الاحتلال وما تجلى في ثورة العشرين إلى مقارعة النظام البعثي الاستبدادي في العراق وصولًا الى المقاومة اللبنانية والفلسطينية والإسناد اليمني والإيراني، ظل اسم الحسين وقصة كربلاء حاضرين بقوة في الخطاب والموقف، باعتبارهما تجسيدًا لأسمى معاني رفض الهيمنة والاستبداد، بهذا المعنى، لا يعود العزاء مجرد ذكرى، بل يتحول إلى وعي يُشحذ، ورسالة تُحمل، وموقف يُعلن ضد كل أشكال القهر والاستعباد، في الشرق كما في الغرب.

التأثيرات القيمية للعزاء على الفرد والمجتمع

يتميز العزاء الحسيني بعدم اقتصاره على إثارة العاطفة، بل يُسهم بعمق في بناء المنظومة القيمية للفرد والمجتمع، وعاشوراء ليست مجرد ذكرى للبكاء، بل هي مدرسة تربوية مفتوحة تُعلّم الناس معاني الإباء، الوفاء، الإيثار، الكرم، والشجاعة، وتُرسّخ لديهم مفاهيم تتجاوز حدود الموقف اللحظي لتُشكّل الهوية الأخلاقية:

1.على صعيد الفرد: يُربي العزاء في النفس الاستعداد للتضحية من أجل المبدأ، ويُوسّع دائرة الإحساس بالمسؤولية، ويُعيد ترتيب أولويات الإنسان، فعندما يسمع الفرد قصة طفل رضيع قُتل عطشًا لأنه ابن الحسين، أو يرى صورة العباس وهو يفدي أخاه، فإنه لا يكتفي بالحزن، بل يبدأ بمراجعة ذاتية لسلوكه: هل أنا وفيٌّ لمبادئي؟ هل أُضحّي من أجل الآخرين؟ هل أقف مع الحق حين يكون موقفي مُكلّفًا؟ بهذا المعنى، يتحول العزاء إلى مرآة أخلاقية يُقاس بها الإنسان ذاته.

2. على صعيد المجتمع: يُسهم المجتمع الذي يُحيي العزاء في تشكيل وجدان جماعي متصل بالعدالة والرحمة، وتتجلى هذه القيم في سلوكات عملية، كما يتضح في المواكب الخدمية التي تُقدم الطعام والشراب والرعاية الطبية دون مقابل، في أوج الكرم والعطاء، وتظهر أيضاً في المسؤولية التشاركية في تنظيم المناسبات الحسينية، حيث يعمل الجميع بتنسيق وتعاون نادر، فضلاً عن ذلك، يُسهم المنبر الحسيني في توجيه المجتمع نحو الإصلاح، نقد الذات، وتعزيز التقوى، والارتباط بالله والإنسان معًا.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

ويمتد الأثر أحيانًا ليشمل إعادة تشكيل العلاقات الاجتماعية على أسس تعاونية وتسامحية، لا سيما في المجتمعات التي تعاني من الفقر، التهميش، أو الخلافات، حيث يُعيد العزاء لحمة الهوية ويُذكّر المجتمع برسالة الإنسان في الوقوف مع المظلومين ومعايير الصدق والمروءة.

استثمار العزاء الحسيني في مواجهة التحديات المعاصرة

تُواجه البشرية اليوم تحديات معقدة ومتعددة الأوجه، وفي مواجهة هذه التحديات، تبرز حركة العزاء الحسيني كقوة روحية، أخلاقية، وثقافية عميقة تُعيد تأكيد المبادئ والقيم التي يُمكن أن تُشكل درعًا واقيًا للإنسانية:

أ- مواجهة هيمنة الظلم والإستبداد: تأتي الهيمنة بأشكالها السياسية، الإقتصادية، والثقافية بهدف إخضاع الشعوب وتقليص حرياتها، وفي كربلاء، وقف الإمام الحسين (عليه السلام) في وجه هذه الهيمنة، رافضاً الخضوع للإستبداد رغم الفارق الكبير في القوة والعتاد والعدد، مُقدمًا بذلك أنموذجًا للثورة الأخلاقية.

الدور العزائي: في كل مجلس عزاء، تُستعاد هذه المواقف، وتُذكر الأجيال بضرورة الوقوف مع الحق وإن كان الثمن باهظًا، ويمكن استثمار هذا الوعي في دعم حركات حقوق الإنسان، نشر ثقافة المعارضة البناءة، وتعزيز مفهوم المواطنة الفاعلة التي لا تقبل الظلم.

ب- مكافحة الفساد والإنحلال الأخلاقي: يهدد الفساد والإفساد الأخلاقي إستقرار المجتمعات وتماسكها، ويرتبط العزاء الحسيني بقيم الصدق، النزاهة، والشجاعة في قول الحق، وهي قيم تتناقض مباشرة مع مظاهر الفساد.

الدور العزائي: تُذكّر المنابر الحسينية بأن الخيانة، الرشوة، والظلم هي أفعال تُقوّض الكرامة الإنسانية، ويمكن للعزاء أن يكون منصة لرفع الوعي بمخاطر الفساد، وتحفيز الأفراد على رفض التواطؤ في هذه الممارسات، ودعم المؤسسات الشفافة.

ت- تجاوز التفرقة ونبذ خطاب الكراهية: تؤدي التفرقة الطائفية، العرقية، أو السياسية إلى تمزيق نسيج المجتمع، والعزاء الحسيني يحمل رسالة وحدة إنسانية شاملة تُؤكد على الأخوة الإنسانية وحتمية التضامن.

الدور العزائي: يتم التركيز على أن الإمام الحسين (عليه السلام) استشهد دفاعاً عن الأمة الجامعة لا عن طائفة واحدة، ومن خلال الخطاب الحسيني الواعي، يمكن مواجهة خطاب الكراهية والتمييز، ونشر ثقافة الاحترام المتبادل لبناء مجتمع متماسك.

ث - مواجهة الجهل والتخلف الفكري والثقافي: يُعد الجهل أحد أكبر المعوقات للتقدم والعدالة، ويمكن للعزاء الحسيني أن يكون منصة تعليمية وترسيخاً للوعي الثقافي والفكري.

الدور العزائي: المنابر والبرامج الثقافية المصاحبة للعزاء ليست مجرد رثاء، بل فرص لتعليم التاريخ، الفقه، الأخلاق، والعلوم الإنسانية، وتعزيز التفكير النقدي والوعي الذاتي، ويمكن تطوير محتوى العزاء ليشمل محاضرات وورش عمل تُعزز التعليم وتتصدى للخرافات والتطرف.

ج - بناء الفرد والمجتمع على أسس الحق والإنصاف: يُقدم الأنموذج الحسيني أساساً قوياً لبناء الفرد الصالح والمجتمع العادل، والفرد الذي يستوعب قيم التضحية والعدل يصبح عنصراً بناءً، والمجتمع الذي يتبنى هذه القيم يصبح قويًا وموحدًا.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

الدور العزائي: يتعلم المشاركون في العزاء كيف يكونون قدوة في تحمل المسؤولية، واحترام القانون، والعمل على إصلاح الذات والمجتمع، ويمكن تحويل الشعائر إلى فعل اجتماعي، مثل مبادرات العمل التطوعي، ومشاريع خدمة المجتمع، وبرامج بناء القدرات.

إن حركة العزاء الحسيني، بما تحمله من قيم راسخة وتاريخ حافل، تُقدم أنموذجًا فريدًا لاستلهام التضحية والإباء، وإنها ليست مجرد إحياء لذكرى أليمة، بل هي مدرسة مستمرة لتشكيل الوعي، وتوجيه السلوك، وبناء مجتمعات أكثر عدلاً وتماسكاً في مواجهة التحديات المعاصرة، لتظل "نبض القيم الإنسانية" حاضرة في كل دمعة ونداء

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة